نظرات قيمة
في قصة النبي موسى عليه السلام والعبد الصالح من سورة الكهف

أ. محمد المسناوي*

التعريف بالبحث

يدرس هذا البحث قصة مختارة من قصص القرآن الكريم، ألا وهي قصة موسى والعبد الصالح من سورة الكهف.. دراسة أدبية فنية: من حيث الأسلوب التعبيري والتصوير الفني والبناء القصصي، وتحقيق هذه العناصر مجتمعة غرضاً دينياً وفنياً مؤثرين في آن واحد.

وبذلك تتحقق أيضاً الأغراض التالية:

- البرهنة على الارتباط الذي بعضها ببعض ضمن القصة الواحدة، وضمن السورة الواحدة، بما يكشف عن الوحدة الفنية والعضوية، أو بما يسمى في علوم القرآن (علم المناسبة) المناسب الآيات والسور، وفي شكله الأرقى (نظام القرآن).
- إبراز مواطن الإعجاز البياني في القرآن الكريم، والتعريف بها، وبيانها للدرس والتقليد عليها.
- إعادة الدرس القرآني (من بيان وإعجاز) إلى محله اللائق من اهتمام الدرس الديني، الذي هو عماد حركة الإحياء الإسلامي الحديث.
- تربية الصلة بالقرآن الكريم.

---

* باحث متفرغ، ولد عام (١٩٣٨م)، وحصل على درجة الليسانس من قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق عام (١٩٦١م)، وعلى درجة الماجستير من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية عام (١٩٧٢م) وكانت رسالته «الفاصلة في القرآن»، وعمل في الصحافة والتدريس، وأصدر عدداً من الدواوين الشعرية والدراسات الأدبية.

الحمد لله، وصلى الله وسلم على نبيه ومصطفاه، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد: فهذه نظرات فنية في قصة النبي موسى عليه السلام والعبد الصالح من سورة الكهف، ونبدأ بذكر الآيات الكريمة التي تتحدث عن هذه القصة:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [٦٠].

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ [٦١].

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ [٦٢].

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ [٦٣].

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [٦٤].

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[٦٥].

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [٦٦].

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [٦٧].

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ [٦٨].

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ [٦٩].

﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [٧٠].

* * *

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [٧١].

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [٧٢] .

﴿ قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ [٧٣] .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ [٧٤].

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [٧٥] .

﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ [٧٦] .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [٧٧] .

﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [٧٨] .

* * *

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [٧٩] .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [٨٠] .

﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [٨١] .

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [٨٢] (١) .

* * *

(١) القرآن الكريم : سورة الكهف (الآيات ٦٠- ٨٢) . والأرقام التي ترد مع الآيات تشير إلى رقمها في السورة .

في هذه الحلقة من سيرة النبي موسى – عليه السلام – قصة كاملة ، عرضت على ثلاث مراحل: البداية والوسط والنهاية .

في البداية يتم لقاء موسى بالرجل الصالح الذي يحرص موسى على لقائه ، وفيها أيضاً تمهيد مشوق لموضوع القصة ، الذي هو رغبة موسى في الإفادة من علم الرجل الصالح ، الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلَّمه من لدنه علماً ، لا يعلمه موسى ، وهو نبيّ . يزيد الأمر تشويقاً أن الرجل الصالح يصارح موسى منذ البداية قائلاً : (إنك لن تستطيعَ معيَ صبراً) ، فيعلن موسى تعهده على الصبر والطاعة ، فيعمد الرجل الصالح إلى ضمان صبر موسى وطاعته بالاشتراط عليه ، إذا تبعه ألا يسأله عن شيء حتى يخبره بسرّه أو بتفسيره .

ترى هل التزم موسى ، أو هل استطاع الالتزام بالعهد وتحقيق الشرط ؟

في وسط القصة ذروة ، تتألف من ثلاثة مشاهد ، كل منها يشكل ذروة مستقلة ، لكن هذه الذرى تتضام لتشكل ذروة كبرى ، لما بينها من تجانس أو تنسيق في العرض والدلالة ، وهو إقدام الرجل الصالح على الإتيان بعمل ، ظاهره منكر، أو لا تقبله (الحكمة الإنسانية القريبة)، إذ يرفضه العلم المحدود بظاهر الأشياء والعلاقات ، لكن من أطلعه الله على بعض علم الغيب ، كهذا الرجل الصالح ، يهتدي (إلى الحكمة الكونية البعيدة) ، التي وراء هذا الفعل .

في الذروة الأولى يعمد الرجل الصالح إلى إحداث خرق في السفينة التي يشترك مع موسى وآخرين في ركوبها ، مما يعرضها للغرق بمن فيها ، فيحتج موسى على هذا التصرف مستنكراً .

في الذروة الثانية يقتل الرجل الصالح غلاماً بلا ذنب تترتب عليه عقوبة شديدة مثل القتل، حتى وصف موسى تصرفه بأنه قتل (نفساً زكية بغير نفس) .

في الذروة الثالثة يتطوع الرجل لبناء جدار مائل ، يشرف على الانهيار ، في قرية أهلها بخلاء ، لم يقبلوا ضيافة موسى والرجل الصالح الجائعين . كيف يقابل الرجل إساءتهم بإحسان؟ كان بوسعه في الأقل أن يطلب أجراً على هذا الجهد يسدان به جوعتهما !

كان موسى في كل مشهد من هذه المشاهد الثلاثة يعجب ويحتج ويتساءل ، فيجيبه الرجل جواباً واحداً : (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ؟) مذكراً إياه بالعهد والشرط بينهما . لما نفد صبر موسى ثلاث مرات على فعل صاحبه الأعاجيب ، يكشف الرجل السر أو الحكمة التي وراء هذه الأعمال ، التي أذهل موسى ظاهرها الصارخ بالظلم أو الإغراب . أوضح له أن السفينة كانت على وشك أن يصادرها ملك ظالم ، من عادته اغتصاب السفن التي تروق له ، وإن إحداث عيب فيها ، يصرف نظر الملك عنها ، وتسلم لأصحابها الفقراء . أما الغلام ، ففي طبيعته بذور كفر وطغيان ، فإذا كبر ، فسوف ينعكس ذلك شقاء على والديه الصالحين ، فقضى الله تعالى بقتله ، قبل طغيانه ، ليسلم والداه من شره ، وفي الوقت نفسه ، يعوضهما بغلام آخر (خيراً منه زكاة وأقرب رحما) جزاء صلاحهما . أما الجدار المتآكل ، فتحته كنز لرجل صالح ، توفي وأولاده صغار ، لا يستطيعون حماية الكنز ، حتى يكبروا ، وإن بناء الجدار يؤجل سقوطه ، ويحقق بلوغ الأطفال سن الرشد والقدرة على المدافعة عن حقهم .

والنهاية كانت بتوضيح الرجل الصالح لموسى أخيراً . . الحكمة في خرق السفينة وقتل الصبي وبناء الجدار .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

* * *

البنية القصصية

قام بناء القصة على عرض متسلسل للأحداث ، وتعريف متنام للشخصيات ، تسلسل يتدرج فيه اشتباك الخيوط وانعقادها حتى تبلغ الذروة في وسطها ، معتمدة على الإرهاص الموحي منذ البداية : (إنك لن تستطيع معي صبرا) ، واقتران ذلك بالتشويق المتصاعد ، بتكرار نفاد الصبر لدى موسى ودهشته وتساؤلاته ، وبإصرار الرجل الصالح على حجب التفسير حتى النهاية ، حيث يكرّ دفعة واحدة على تفسير الغوامض ، وفتح مغاليقها ، لتكون الخاتمة إشباعاً لتلهف موسى ، وحلاً لعقد القصة فنياً بآن واحد .

إنها بنية فنية جذابة ، وهي في الوقت نفسه تخدم غرض القصة الوعظي الديني ألا وهو: (**بيان الفارق بين العلم الإنساني القريب العاجل، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة**)[١]، وهذا طرف من التصور الإسلامي للوجود. جزئيات هذا الكون والحياة فيه أو عليه والعلاقات بينها، تقوم على بناء محكم ، تترابط فيما بينها ، ارتباط السبب بالنتيجة والعلة بالمعلول ، سواء بدا ذلك لعلمنا البشري أو لم يبدُ . كما أن الخير والشر البشريين، لهما دورهما في التأثير على مجرى الأحداث. قد تكون هذه الآثار ظاهرة أو خفية ، قريبة الظهور أو بعيدة الأمد . فحال أصحاب السفينة المساكين أمام رجل ظالم ، وصلاح والدي الغلام المخبوء شره، أو صلاح والد الأيتام الثلاثة في قرية تبخل على الضيوف بما يسد رمقهم .. كل ذلك اقتضت العناية الإلهية جعله عوامل مؤثرة في توجيه الأحداث الوجهة التي كُلِّف بها الرجل الصالح أو أطلعنا على سرها .

* * *

الشخصيات

لم يسمّ من الشخصيات إلا النبي موسى ، الذي هو الشخصية الأولى ، أما الرجل الصالح، الشخصية الثانية أو المقابلة ، على أهميتها ، فلم تُعرف بغير صفاتها : الصلاح والعلم والحلم، وهي المطلوبة فنياً في هذه القصة ، لا سيما صفة العلم (آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) . وقد ظل اسمه مجهولاً حتى آخر القصة . وبالمناسبة يدخل الرجل الصالح القصة من المجهول ، وحين تنتهي القصة، يغيب في المجهول أيضاً ، وهذا يتناسق فنياً مع دوره ، الذي كان هو كشف الستار عما هو مجهول من أسرار الأحداث التي وقعت على يديه ، كما يرى المرحوم سيد قطب [٢] ، فضلاً عن الفتى الذي كان يحمل السمكة في مطلع القصة ، ولم تعد هناك حاجة للتوسع بتوصيفه أو تسميته ، فدوره انتهى بظهور الرجل الصالح .

---

(١) التصوير الفني في القرآن – سيد قطب – ص١٥٥ .

(٢) المرجع السابق – ص١٨٥ .

على الرغم من التصريح باسم موسى ، لم تكن غاية القصة تصوير شخصيته بالذات ، بقدر ما كانت الغاية تصوير الطبيعة البشرية المحدودة العلم بالقريب أو العاجل ، ولو كان صاحبها نبياً، ما لم يعلّمه الله مثلما علّم الرجل الصالح . ومن التناسق الفني أن طبيعة موسى ، كما وردت مفصلة في القرآن الكريم ، وفي هذه القصة ، نموذج إنساني للرجل (المندفع العصبي المزاج) : (قتله للرجل المصري في شجار مع إسرائيلي .. كسره للألواح.. أخذه لأخيه هارون بلحيته ورأسه وجره إليه ...)[١] . لذلك ظهرت طباعه في هذه القصة القصيرة في استعجاله في الاحتجاج والاعتذار ، وفي اندفاعات غضبه ونفاد صبره أخيراً ، على الرغم من التحذيرات والعهد والشرط المسبقين . وهي صفات بشرية ، بعضها مثّل محدودية العلم، ليست صفة وحسب ، بل هي الطبيعة البشرية ذاتها لا غير . واتساق شخصية موسى وطباعه مع ما ورد في مواضع أخرى من القرآن الكريم – وهي لا تقل عن أربعة وثلاثين موضعاً[٢] – هو لون من الإعجاز .

وانفراد سورة (الكهف) بعرض هذه الحلقة من حياة موسى ، التي تبرز الجانب البشري لا النبوي ، ولا العلاقة بقومه بني إسرائيل ، ولا طفولته ، إنما هو على طريقة القرآن في إيراد ما يناسب السياق الفني أو الديني من سير الأنبياء ، مثل حياة موسى ، التي تكرر ذكرها أكثر من غيرها .

قصة قصيرة ، عدد شخصياتها قليل ، وهو المطلوب . والتركيز فيها على الشخصية الأولى، شخصية النبي موسى ، أو الجانب البشري منها . وعلى الرغم من مفارقة شخصية الرجل الصالح لشخصية موسى ، فإنها مفارقة مقابلة ومكملة : العلم البعيد المدى مقابل العلم القصير المدى ، الحلم مقابل الاندفاع ، التمهل مقابل الاستعجال ، المعلم مقابل التلميذ . وهذا يلبي الغرض الديني والفني في وقت واحد ، ويرسخ انطباع الشخصيات في الذاكرة أيضاً .

* * *

(١) التصوير الفني – ص ٢٠٠ .

(٢) تفصيل آيات القرآن الكريم– جون لابوم– نقله إلى العربية محمد فؤاد عبدالباقي– ص٨٣ .

الحوار

غلب الحوار على أسلوب القص ، وكادت القصة تتحول إلى نص حواري ،لولا ابتداء السطور الحوارية بكلمة (قال) سبع عشرة مرة . بل إن الآيات – وهي ثلاث وعشرون – لا يستقل السرد فيها إلا بآيتين اثنتين ، وبعبارات متفرقة قليلة جداً ، وما سوى ذلك حوار ثنائي بعضه بين موسى و(فتاه) ، ومعظمه بين موسى والرجل الصالح . والحوار بطبيعته ، أوفى أداء في تصوير الشخصيات (نفوساً ونبرات) ، وفي استحضار المشاهد عياناً ، حين تقف الشخصيات نفسها تتحاور أمام باصرة المتلقي ومسمعه . وهذا درس فني ، يستنتج منه أن لا ضير ، بل ربما الأحسن ، في مثل هذه القصص الاعتماد على الحوار أولاً .

نهض الحوار بثلاث مهمات في الأقل :

أولاها : تصوير الشخصيات المتحاورة ، كما ذكرنا آنفاً .

ثانيتها : إنماء الصراع الصاعد بين الشخصيتين الرئيستين ، حتى لحظة الحل والانفراج .

الثالثة : وهي الأهم ، ألا وهي جلاء (الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة المحدودة ، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة) .

لنتأمل كيف يصف الحوار صاحبه ، وكيف يعبر أدق تعبير عن تفاصيل الشخصية المتكلمة .

كان أول حوار أو جواب نطق به الرجل الصالح لموسى قوله : (إنك لن تستطيع معي صبراً) :

وهو نفسه آخر جواب أو تعليق يصدر عنه على أسئلة موسى واحتجاجاته المتكررة ، إنه عودة النهاية إلى البداية : تماسك في الحوار وفي البناء القصصي وفي شخصية الرجل الصالح .

تردد (أي تكرر) ذكر هذا الجواب بلفظه تقريباً خمس مرات، يفيد عدداً من المعاني منها :

– معرفة الرجل الصالح اليقينية المسبقة – بفضل من الله تعالى – بطبيعة موسى البشرية، وبصفاته الشخصية .

– ثبات جَنان الرجل الصالح ، وقوة خطابه مع موسى (معلم أمام تلميذ) .

– حمل الحوار بعداً أو معنى إضافياً ثانياً ، لا يتعارض مع مخاطبة موسى ، ألا وهو خطاب المتلقي خارج النص أو قراء القصة عبر الزمان ، ونحن منهم . أي أن النص القرآني بقوة تأثيره على القاريء يجذبه إلى المشاركة الوجدانية للتجاوب مع مضمونات النص ، كأنه عضو في القصة أو مخاطب بها . أعان على ذلك تكرار المعنى وتكرار اللفظ ، مضافاً إليهما جمال التعبير والصياغة والموسيقى المؤثرة .

مثل ذلك قوله لموسى : (فإن اتبعتني ، فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً) :

– دلالة على معرفته المسبقة بطباع موسى ، وتوقعه لما سيحصل بينهما .

– لهجة المعلم أو المتبوع مع تلميذه أو تابعه .

– التابع كبير كالأب ، والمتبوع دون ذلك كالابن .

– تفطنه لاشتراط الشروط وأخذ العهد منذ البداية .

– وعده بالتفسير من عند نفسه في النهاية ، ويقينه بامتلاك التفسير المقنع .

تلمذة موسى نجدها في كلامه أيضاً ، حين يستأذن قائلاً : (هل أتبعك على أن تُعَلِّمَنِ مما علمت رشداً ؟) . لاحظ قوله : (مما علّمت) : إنه تسليم بسعة علم الرجل ، وبرضى موسى ببعض هذا العلم أدباً وتواضعاً . والمفارقة المعبرة اندفاعات موسى الغاضبة بعد ذلك : (لقد جئت شيئاً إمراً .. لقد جئت شيئاً نكراً .. لو شئت لاتخذت عليه أجراً) ، يخالف هذا مرة أخرى عودة موسى إلى اللين والضعف والاعتذار عن قريب : (لا تؤاخذني بما نسيت ... إن سألتك عن شيْ بعدها فلا تصاحبني) .

إن حوار كل منهما يدل على صاحبه دلالة فائقة، لدرجة أن النص القرآني يكتفي بلفظ (قال) من غير ذكر اسم القائل أو أي صفة من صفاته، ونحن بالتالي نعرف صاحب القول بيسر

وببساطة بالغتين جميلتين . كما أن المقارنة بين حواري الرجلين ، مقارنة جزئية أو كلية ، تزيد الوضوح والفروق في ملامحهما الفكرية والنفسية في الوقت نفسه .

مما أعان الحوار على إنماء الصراع الصاعد ، الاقتصاد أو الإيجاز في التعبير **أولاً** ، والدوران في فلك الموضوع نفسه وحسب **ثانياً**، **وثالثاً** رفعه لوتيرة الافتراق والتباين بين شخصيتي موسى والرجل الصالح درجة درجة : الرجل الصالح يتصرف بما يثير موسى .. موسى يتساءل يندهش يحتج يستنكر .. الرجل الصالح يستمر في ممارساته ، يذكّر بالشروط ، يستمهل ، يصر على خط سيره حتى ينفد صبر موسى وصبر المتلقي حتى نبلغ القمة ، ثم يأتي الختام بالتفسير الذي هو الحل أو الانفراج ونهاية الصراع . وأخيراً قلة كلام الرجل الصالح في القسمين الأولين (مرحلتي التصعيد)، ووفرته بل استقلاله وحده بالكلام في القسم الأخير (مرحلة الحل) .

إن الفروق في تعبير كل من الرجلين الحواري تتناسق مع الغرض العام للقصة ليس بسبب التباين وحده ، بل بالعلاقة الدقيقة الوشيجة بين كل لفظة أو عبارة وبين هذا الغرض العام. تأمل معي **فروق التعبير المقصودة المتكاملة ضمن حوار الشخصية الواحدة :**

أ – جواب الرجل الصالح في موقفين متشابهين ، والتشابه لا يعني دائماً التطابق ، جاء الجواب متشابهاً وغير متطابق بزيادة (لك) في المرة الثانية : (ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً) (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً) ، وزيادة هذه الكلمة تفيد المزيد من توكيد المعنى وإبرازه بتعيين المخاطب صراحة ، فضلا عن اللوم .

ب – تعليل الرجل الصالح لأفعاله ، يتدرج فيه الرجل بكشف دور الإرادة الإلهية في المهمات التي نفذها أولاً ، كما يتأدب ثانياً حين ينسب الخرق أو القتل (الفعل السلبي) لنفسه : (فأردت أن أعيبها . . .فأردنا أن يبدلهما . .) ، وحين ينسب بناء الجدار(الفعل الإيجابي) لله تعالى : (فأراد ربك أن يبلغا . .) ، وله الأسماء الحسنى .

* * *

التكرار

للتكرار الفني /الجمالي دور تعبيري : هو توظيف التكرار لأداء دور إضافي مطلوب أو مرغوب ، في سياقه الذي ورد فيه أو من أجله . وكلما تعددت دلالته ، أو اغتنى توظيفه ، كان ذلك أجمل ، حتى يصل إلى حدّ الإعجاز .

التكرار من الظواهر المعلومة في الحياة ، يظهر في الأدب في التناوب ، أو تكرار الشيء على أبعاد متساوية ، وفي ترديد لفظ واحد أو معنى واحد ، وهو الترجيع ، مثل رد العجز على الصدر في الشعر ، ومنه الترجيع المتسق rythme أي التكرار الموزون لوضع أو مركز قوة [١] : مثل تكرار حرف أو كلمة أو تركيب أو صورة أو مقطع كامل ....

التكرار في هذه القصة وافر ، تعددت أنواعه ، ومواضع استخدامه ، وأغراضه التي ينطوي عليها .

فأنواعه :تتدرج من تكرار حركة الفتح في (رويّ) الفواصل ، إلى اطّراد الفاصلة في ختام الآيات، إلى التزام (رويّ) موحّد (وهو حرف الراء) في معظم الفواصل ، إلى تكرار كلمات بعينها مثل : (قال) (انطلقا) ، إلى تكرار صيغة : (أمّا ..ف) ، إلى التزام جملة : (لقد جئت شيئاً) ، إلى التزام معظم آية : (إنك لن تستطيع معي صبرا) .

أما **مواضع استخدامه** ، فتنوعت : في بدايات الآيات ، وفي نهاياتها ، وفي تضاعيفها أو أوساطها .

في بدايات الآيات : تكرار فعل : (قال: ١١ مرة) ، وتكرار صيغة الشرط (أما ..ف: ٧ مرات) ، وجملة (انطلقا: ٣ مرات) . وهناك علاقة واضحة في تكرار (فانطلقا) و(صيغة الشرط) .. تشبه علاقة الصوت بالصدى : الترجيع باللفظ والمعنى معاً .

في نهاية الآيات : حركة الفتح في الفواصل ، وحرف الراء في روي معظم الفواصل : (١٢ مرة)، ومعظم آية (إنك لن تستطيع معي صبرا : ٥ مرات) .

---

(١) النقد الجمالي وأثره في النقد العربي – روز غريب – ص ٢٨ .

أما في تضاعيف الآيات : فيمكن أن نلقاه في : (خرقها – أخرقتها) (فقتله – أقتلته) (نفساً – بغير نفس) (ألم أقل : مرتين) (عبداً : عبادنا) (تعلمني – علّمت) (بيني – بينك) (كان – كان – كان : في آية واحدة) .

كذلك **الأغراض التي يؤديها هذا التكرار** متعددة متنوعة ، وبوسعنا أن نتناولها من ثلاثة أبعاد : المعنى أو الدلالة ، الإيقاع الموسيقي ، الانطباع الكلي .

من أغراض التكرار في المعنى عادة (التوكيد) ، وقد أضيف إلى التوكيد هنا مزية التقسيم للمشاهد : في بداياتها وفي صداها أو نهاياتها .

بدأ المشهد الأول (ركوب السفينة) ب (فانطلقا . حتى إذا ركبا . . .) ، ولما تم المشهد الأول بدأ الثاني (قتل الغلام) ببداية مشابهة (فانطلقا . حتى إذا لقيا . . .) ، ولما انتهى المشهد الثاني بدأ الثالث (بناء الجدار) ببداية مماثلة (فانطلقا . حتى إذا أتيا . . .)، ولما تمت المشاهد الثلاثة مرتبة البدايات على نسق واحد ، فضلاً عن الوزن الموحد ، جاء التعقيب عليها، يكرر الأجوبة مرتبة بنسق مقابل موازٍ للترتيب نفسه والنسق نفسه : (أما السفينة . . أما الغلام . . أما الجدار . .) . حتى حروف العطف كانت حرف الفاء في بدايات المشاهد (للترتيب والتعقيب)، وحرف الواو في بدايات الأجوبة أو التفسير ، بما يزيد الاصطفاف توكيداً وتنسيقاً .

هذا **مستوى أول** في دلالة التكرار المعنوية ، الذي هو (التقسيم ورجع الصدى للتقسيم)، أما **المستوى الثاني** ، فهو تحقيق علاقة تماسك ، أو وحدة (موضعية) بين المشاهد الثلاثة أولاً، وبين التعليقات الثلاثة على حدة ثانياً ، ثم علاقة (الصوت بالصدى) بين مجموعة المشاهد الثلاثة من جهة ، وبين مجموعة التعليقات من جهة ثانية . لذلك سمينا الذرى الثلاث في المشاهد الثلاثة بـ (ذروة واحدة) في بناء القصة ، على حين وجدنا التعليقات الثلاثة تشكل كياناً واحداً أيضاً ، هو الحل أو الانفراج في ختام القصة .

حتى التعليقات الثلاثة ، التي شكلت (قسم الختام) ، نجد لها ختاماً خاصاً بها ، أو خاتمة موضعية أخرى للقسم نفسه (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً) ، وهي رجع صدى لما سبق :أي ترجيع الصدى وتردده (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) ، وهذا الصدى الأول . وهناك الصدى الثاني يحققه كل من هذين الموضعين أو السطرين مع سطر سابق (إنك لن تستطيع معي صبراً) الذي سبق له أن تكرر ثلاث مرات أخريات ، مما نشأ عن مجموع هذه التكرارات الخمسة إيقاع لازمة موسيقية ، تلتزم في مراحل القصة ، وفي تعاقب مشاهدها المتسلسلة .

وهنا ننتقل من الدلالات المعنوية إلى أمثلة الدلالات الموسيقية للتكرار .

* * *

الفاصلة

للتقفية جمالها في الأدب ، كالقافية في الشعر والسجعة في النثر والفاصلة في القرآن الكريم . **وتعريف الفاصلة : (كلمة آخر الآية كقافية الشعر وسجعة النثر)**[١] . وهذه المصطلحات ليست تمييزاً لكل نص من النصوص التي ترد فيه وحسب ، بل هناك أيضاً فروق فنية جمالية بين كل منها ، لا سيما الفاصلة التي فاقت القافية والسجعة في مزاياها ومواصفاتها .

القافية في الشعر العربي – وقبل ظهور شعر التفعيلة / الشعر الحديث – تسمى بأسماء أهم حرف من حروفها ، الذي هو حرف (الرويّ) ، مثل لامية الشنفرى ، وعينية ابن زُريق البغدادي . والعادة أن يلتزم الشاعر هذه القافية المتماثلة أو الروي الموحد من أول القصيدة حتى آخرها . **أما الفاصلة في القرآن فلها ثلاثة أنواع : المتماثلة والمتقاربة والمنفردة**[٢] .

---

(١) الفاصلة في القرآن لمحمد الحسناوي – تعريف الفاصلة– ص٢٨ .

(٢) المرجع السابق – ص ١٤٥ – ١٤٨ .

الفاصلة المتماثلة : هي التي تماثلت حروف رويها ، كقوله تعالى : ﴿ **وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ** ﴾ (١) .

الفاصلة المتقاربة : هي التي تقاربت حروف رويها ، كتقارب الميم من النون : (الرحمنِ الرحيم . مالكِ يومِ الدين) . ومن التقارب أيضاً تماثل حركة الرويّ ، مثل حركة الفتح في فواصل سورة (الكهف) .

الفاصلة المنفردة – وهي نادرة – هي التي لم تتماثل حروف رويها ، ولم تتقارب ، كالفاصلة التي خُتمت بها سورة الضحى (...فحدِّثْ) .

ما جاء من فواصل هذه القصة اقتصر على النوعين الأولين – وهما الغالبان في فواصل القرآن – ألا وهي المتماثلة والمتقاربة . ولما كنا ننظر إلى النص من خلال وحدته الفنية ، التي تفرض نفسها ، نشأ عن اجتماع الفواصل المتماثلة مع المتقاربة نسق توافقي ، ينسجم فيه النوعان مجتمعين متداخلين ، بسبب تنوع الفواصل المتماثلة من جهة ، وانضمام المتقاربة إليها من جهة ثانية .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

لن نتناول ها هنا علاقة كل فاصلة بآيتها ، لأننا ندرس الفواصل في علاقتها بمجموع القصة، مع العلم أن للفاصلة جمالياً << أربعة أنواع من العلاقة الموضعية بآيتها >> ، يمكن الرجوع إليها في كتابنا (الفاصلة في القرآن) ، وهي : (التمكين – التصدير – التوشيح – الإيغال)(٢) .

سبق أن رأينا البنية القصصية في هذه القصة قائمة على ثلاث مراحل متعاقبة : (بداية – وسط – نهاية) ، وأن العلاقة بينها ليست الترتيب والتسلسل وحسب ! بل علاقة تشابك والتحام عضويين ، فالمرحلة الثانية ، لا تكمل الأولى الممهدة لها وحسب ، بل تنبني عليها بناء، لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر . وهكذا الخاتمة أو النهاية ، التي هي تتويج وخلاصة وحل

---

(١) سورة الطور، الآية: ١–٣ .

(٢) الفاصلة في القرآن – ص ٢٨٦ – ٢٩١ .

للعقد التي اشتبكت في الوسط بالذات ، و ردّ لعجزها على صدرها في التعقيب : (تأويل ما لم تسطع عليه صبراً) .

الفاصلة هنا تؤدي أدواراً متعددة متنوعة ، منها الموازاة البناءة للمراحل القصصية من جهة ، ولمجموع القصة الكلي من جهة أخرى .

أولاً : اطردت حركة الفتح في فواصل النص كلها : (حُقبا – قَصصا – صَبرا ...) ، وهذا الإيقاع الموسيقي ، يعطي انطباعاً موحداً للنص كله ، يذكّر بوحدة الروي مجرد تذكير لا غير . وسوف نلحظ حركة الفتح هذه ، وهي تنقل هذه العلاقة من وحدة موضعية إلى وحدة جامعة لوحدات أخرى في سورة (الكهف) ، تتألف من مجموعها السورة . كما نلحظ عاملاً توحيدياً آخر ألا وهو الوزن المطرد في فواصل القصة : (فَعَلن – فَعْلن) ، مضافاً إليهما أحياناً وزن : (فاعلن) في بقية فواصل السورة .

ثانياً : المرحلة الأولى من هذه القصة (الآيات ٦٠ – ٧٠) تنوعت فواصلها المتقاربة ، أكثر من تنوع المرحلتين التاليتين . ففواصل الآيات الأربع الأولى منها ، وهي تشكل وحدة جزئية فيما بينها ، جاءت على رويّ الباء (حقباً – سربا – نصبا – عجبا) . وفواصل الآيات الثلاث التالية ، وهي تشكل وحدة جزئية أخرى انتقالية بين ظهور شخصية الرجل الصالح وغياب شخصية فتى موسى ، تنوعت حروف رويها مع احتفاظها بحركة الفتح : (قَصَصاً – عِلْماً – رُشْداً) . وفواصل الآيات الأربع الباقية عادت إلى توحيد الروي ، لكن على حرف الراء ، وهو الروي الذي ظهر بظهور شخصية الرجل الصالح ، وسوف يستمر باستمراره حتى يغيب : (صبراً – خُبراً – إمراً – ذكراً) .

ففي الوقت الذي تنوعت فيه حروف روي الجزء الانتقالي الثلاثة ، توحدت حروف روي بدايته وختامه أربعاً أربعاً ، تمهيداً للدخول وانسياباً مع الانتقال .

فواصل المرحلتين التاليتين (الآيات ٧١ – ٧٨) (٧٩ – ٨٢) ، ومجموعها اثنتا عشرة فاصلة ، كلها على روي الراء ، ما عدا فاصلتين اثنتين (غصباً : ٧٩ – رحماً : ٨١) في

المرحلة الأخيرة ، حيث يميل اشتداد الخلاف إلى الهدوء مع الحل ، كما بدأت الفواصل تتنوع في البدايات من المرحلة الأولى ، على حين بلغ تماثل حروف الروي أوجه في مرحلة الوسط ، حيث ذروة التوتر ، وحيث الذرى الثلاث : (خرق السفينة- قتل الغلام – بناء الجدار) ، تتضامّ ، لتشكل ذروة كبرى .

إذا دققنا أكثر في علاقات الفواصل التكوينية فيما بينها نقع على طرائف مدهشة ، تنهض بدور خفي جميل لطيف في الترجيع للمعاني والأصداء ، نذكر منها على سبيل المثال فاصلة (غصباً : ٧٩) على رويّ الباء في مطلع المرحلة الأخيرة ، تتناغم ، ولو من بُعد مع فواصل الباء الأربع في مطلع المرحلة الأولى : (حُقباً – سرباً – نصباً – عجباً) ، وأن فاصلة (رُحماً : ٨١) على رويّ الميم في وسط المرحلة الأخيرة ، تتناغم مع فاصلة وحيدة (عِلماً) في وسط المرحلة الأولى أيضاً . هاتان الفاصلتان المتناغمتان مع المرحلة الأولى ، وهما النصف العددي لفواصل المرحلة الأخيرة الأربع ، تقابلهما فاصلتا (كفراً: ٨٠ – صبراً : ٨٢) من حيث تماثلهما في حرف الروي ، ومن حيث تناغمهما مع فواصل المرحلة الثانية التي جاءت كلها أيضاً على رويّ الراء . والأطرف أن هذه الفواصل الأربع الأخيرة ، تتناوب فيما بينها التوالي هكذا :(غصباً – كفراً – رحماً – صبراً) ، فتحقق بذلك التنوع في الوحدة أيما تحقيق وأجمله .

عدد الفواصل في كل مرحلة يعكس عدد الآيات أو حجم المساحة لكل مرحلة ، ويعكس في الوقت نفسه عدد الشخصيات بشكل متوازٍ متناسق، يزيد بزيادتها، ويقل بقلتها : المرحلة الأولى تشمل (١١) إحدى عشرة فاصلة أو آية، وثلاث شخصيات (موسى وفتاه والرجل الصالح) . المرحلة الثانية تشمل (٨) ثماني فواصل أو آيات،وشخصيتين تتحاوران (موسى والرجل الصالح) . المرحلة الأخيرة تتكلم فيها شخصية واحدة هي شخصية الرجل الصالح، فلم تشمل إلا (٤) أربع فواصل أو آيات .

* * *

التنوع ضمن الوحدة

سبق أن أشرنا إلى دور حركة الفتح وإلى وزن (فعلن) العروضي التوحيديين في الفواصل بالنسبة إلى قصة موسى والرجل الصالح ، وبالنسبة إلى بقية سورة (الكهف) ، كما رأينا كيف تقاربت أو ائتلفت فواصلها التي تنوعت حروف رويها بين (الراء : ١٤ مرة) و(الباء: ٥مرات) و(الميم : ٢ مرتين) وكل من (الدال والصاد : ١ مرة واحدة) . مع العلم أن الميم والباء حرفان شفويا المخرج ، وحروف الراء والصاد والدال لسانيات ، ومخرجا الشفة واللسان متقاربان . هذا جانب من عوامل الوحدة والتماسك الجزئية والكلية .

هناك عاملان آخران في الأقل ينهضان بمثل هذا الدور : **أحدهما**: اتساق الغرض الخاص لقصة موسى والرجل الصالح مع الغرض العام للسورة ، التي تلتقي فيه وحدات السورة الأخرى، ألا وهو: (تصحيح العقيدة ، وتصحيح منهج الفكر والنظر ، وتصحيح القيم بميزان العقيدة)[١] . **ثانيهما** : مدخل القصة التي نحن بصددها : (وإذ قال موسى لفتاه ..)، وهذا المدخل يذكرنا بمداخل الوحدات الأخرى ، وهي:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾(٩) .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾(٣٢) .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾(٤٥) .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾(٥٠) .

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – تفسير سورة الكهف – ص٢٢٥٧ .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾(٦٠) .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾(٨٣) .

في أربعة من هذه المداخل الستة يُخاطب الرسول محمد – عليه السلام – مباشرة :(أم حسبتَ . . واضرب لهم مثل الحياة . . واضرب لهم مثلاً . .ويسألونك عن ذي القرنين . . .) ، كما أن حروف الاستئناف تفتتح بها جميعاً ، فترتبط هذه الوحدات بسورة الكهف ارتباط عناقيد العنب بداليتها .

والقصص هو العنصر الغالب في هذه السورة . ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف ، وبعدها قصة الجنتين ، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس ، وفي وسطها قصة موسى مع العبد الصالح ، وفي نهايتها قصة ذي القرنين . ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة ، فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشر ومئة آية ، ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها . وإلى جوار القصص بعض مشاهد القيامة ، وبعض مشاهد الحياة التي تصور فكرة أو معنى ، على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير[١] .

على أن الجامع الفني العام لوحدات سورة (الكهف) هو نموذج (المَثَل) ، الذي صرح به القرآن نفسه : (واضرب لهم مثلاً . . .) (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا . .) . وقد ذكر الباحثون للمثل ثلاثة أنواع ، جاء منها نوعان في القرآن الكريم : **الأول** : المثل الموجز السائر . **والثاني** : المثل القياسي ، وهو سرد وصفي أو قصصي ، أو صورة بيانية لتوضيح فكرة ما عن طريق التشبيه والتمثيل ، ويسمّيه البلاغيون : (التمثيل المركب) ، لغرض التأديب والتهذيب، أو التوضيح والتصوير ، وأكثر أمثلة القرن الكريم والحديث الشريف منه[٢] . لذلك

---

(١) في ظلال القرآن – مج ٤ – ١٥ / ٢٢٥٧ .

(٢) أمثال القرآن – لابن قيم الجوزية – دراسة وتحقيق : د.موسى بناي علوان العليلي – الفصل الأول من جهد المحقق – ص ١٣ .

هناك من يرى (أن من الممكن أن تُعدّ جميع قصص القرآن أمثالاً قصصية قرآنية ، لأنها لا تكاد تختلف عن القصص التي عدّها القرآن أمثالاً ، ونصّ على مِثليتها ، وقد قصد منها العظة والعبرة)[١] .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) الأمثال في القرآن الكريم – د . محمد جابر الفياض – ص٢٥٧ .

المصادر و المراجع

١– القرآن الكريم.

٢– أمثال القرآن لابن قيم الجوزية، دراسة وتحقيق: د. موسى بناي علوان العليلي، مكتبة القدس، بغداد (١٤٠٧هـ–١٩٨٧م).

٣– الأمثال في القرآن الكريم للدكتور محمد جابر الفياض، دار الشؤون الثقافية، بغداد (١٩٨٨م).

٤– التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، دار الشروق، بيروت والقاهرة، ط٨ (١٤٠٣هـ–١٩٨٣م).

٥– تفضيل آيات القرآن الكريم لجون لابور، نقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، ط٢.

٦– الفاصلة في القرآن لمحمد الحسناوي، دار عمار، عمان، ط٣ (٢٠٠٠م).

٧– في ظلال القرآن لسيد قطب، ط١٧ (١٤١٢هـ–١٩٩٢م).

٨– النقد الجمالي وأثره في النقد العربي لروز غريب، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٥١م).

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی